الغطرسة والعنصرية في الرواية الصهيونية

بقلم غسان كنفاني

خلال عشرة ايام فقط ، من ١٥ الى ٢٥ ايار ١٩٦٧ ، قوضت حركة الجيش العربي في سيناء والعقبة اهرامات من التبجح الاسرائيلي بنيت خلال عشرين سنة من الغطرسة التي نــدر ان شهد التاريخ مــا يماثلها تزويرا وتضليلا ولا انسانية .

وخلال هذه الايام انكمشت الغطرسة الاسرائيلية فجأة في سلسلة من التراجعات امــام صعود الحقيقة الاصلية وهي قدرة الشعب العربي وطاقاته واهدافه التي كانت تنتظر فرصة ان توضع موضع التنفيذ .

واذا كانت الغطــرسة السياسية والعسكريــة الاسرائيلية قد بدت خلال هذه الايام القليلة مجرد تبجح وهستيريا ، واذا كــان المسؤولون الاسرائيليون قــد تراجعوا خلال اسبوعين فقط من شعار « غزو دمشق » الى الاستنجاد بواشنطن والانكفاء الــى الصمت الذليل والشكوى من « انعدام فرص النجاة » فان هــذا وحده ستكون له نتائج خطيرة جــدا داخل اسرائيل التــي استخدمت سلطاتها خلال العشرين سنة الماضية كــل الوسائل لحشو سكانها الغزاة بالغرور وبمشاعر التفوق والعصمة وباوهام القدرة غير المحدودة على «التأذيب» .

ويلعب الادب ، من بين الوسائل التي استخدمتها اسرائيل في هــذا النطاق ، دورا بارزا وضعيفا فــي آن واحد ، فخــلال العشرين ســنــة الماضية كومت الصهيونية جبالا مــن الروايات الاسرائيلية كانت تنشر جرثومة الغطرسة والاستعلاء والتفوق في كل بيت وفي كل رأس داخل الارض المحتلة حتى اوصلت اليهود الى حالة مرضية تستعصي علــى الشفاء الا عــن طريق اقتلاع اسرائيل من اساسها .

ومن المبكر الان الحكم اذا كان هـــذا « الغــزو الادبي » المضلل هو نتيجة للموقف السياسي والعسكري ام ان الموقف السياسي والعسكري كان نتيجة لذلــك الغزو الادبي الذي اتخذ طابــع غسل دماغ جماعــي منظم ، ولكن من الواضح انه سواء أكان الافتراض الاول صحيحا ام الثاني فــان الادب الصهيوني سيظــل ، تاريخيا ، اوضح الشواهد على نتائج التضليل ومترتبات تجنيد الفن لخدمة الدعاية المضللة .

وفي هذا النطاق تنشر « الاداب » هــذا الفصل من كتاب كبير يعده غسان كنفاني للنشر حول « الادب الصهيوني » ، وهو الفصل الذي يتحدث عــن تلك الغطرسة العنصرية علــى صعيد الرواية الصهيونية : اسبابها وصورها ونتائجها .. هــذه الغطرسة التــي بنيت في عشرين سنة من التضليل فقوضتها عشرة ايام من الصواب !

« الاداب »

يفسر روبن وولنرود عصمة البطل اليهودي وتفوقه المطلق بقوله ان الكاتب اليهودي « يفقد كثيراً من موضوعيته بسبب شعوره الكامــل بهويته وبمسؤولياتها ...» ولذلك « فان القرب الشديد مــن الاحداث والشخصيات تعطي كتاباته حيوية ، ولكنها تعطيها ، في الوقت نفسه ، نوعا من المايوبيا » (١) .

وسنرى ، في الواقع ، ان العكس هو الصحيح : فاذا كان الكاتب اليهودي قريبا حقا من الاحداث ، بالمعنى العقلي والجسدي ايضا ، فانه لا يفقد موضوعيته بالقدر الذي يفقدها كاتب صهيونــي يتناول الاحداث من بعيد .

ولذلك فاننا سنلحظ دوما بعداً عن الموضوعية كلما ابتعد الكاتب عن الاحداث ، وبعداً اقل كلما اقترب منها : ان ليون اوريس في «اكسودس» ليس مصابا بالمايوبيا فقط ، ولكنه في حالة عمى ذهنية كاملــة تقريبا . اما يائيل دايان ، مثلا ، بصفتها اقرب الى الاحداث من اوريس ، فهــي اقل لاموضوعية منه .

ومن ناحية اخرى فان الجدير بالملاحظة حقا هو ان يكون « الشعور الكامل بالهوية وبمسؤولياتها » سببا منطقيا في رأي وولنرود لـ «فقدان الموضوعية » .. ان ذلك لا يمكن ان يحدث الا في حالة واحدة ، هي عدم موضوعية تلك الهوية ومسؤولياتها ، ومن هــــذه الناحية فان ملاحظة وولنرود صحيحة تماما ، ويمكن ترجمتها مباشرة الى صيغة اكثر وضوحا هي : ان دفاع الكاتب اليهودي عن قضية لاموضوعية لا يمكن الا ان يتــم باسلوب لاموضوعي .

وهذا بالذات يفسر التناقضات التي يسقط فيها الكاتب اليهودي عبر عمله الروائي .

سنرى ان شاعراً كان قريبا حقا من الاحداث ، هو دافيد شمعوني (ولد عام ١٨٨٦ ووصل الى فلسطين عام ١٩٠٩) يتحدث في قصيدته « الضريح » عن رجل اسمه كاتريل ، واحد ممـــن يكرهون ان يسموا بالرواد ، وهو يحتج عبر القصيدة على محاولة شحنه بالاعتقاد بانه قام بتضحية كبرى حين يقول « ان الحياة التـــي تركناها كانت مخيفة » . ويرى كاتريل هذا ان فلسطين هي الارض الوحيدة في العالم التي يجد فيها الفرد اليهودي الحرية والكرامة (٢) وهو يحتج علـــى عملية اطلاق

---

١ ــ ادب اسرائيل الحديثة ، روبن وولنرود ــ ص ٢

٢ ــ نفس المصدر ــ ص ٥٠

هالة من الامجاد على اعمال الشباب اليهودي في فلسطين ، لان هذه البلاد ، من دون بلاد العالم ، اعطت اليهودي فرصة للحياة ، ولكن هذه النظرة للمسألة لن تبقى طويلا ، وسيتقدم البطل اليهودي المعصوم ، الذي يمثل التفوق المطلق على جميع المستويات ، خطوة وراء خطوة ليصبح ظاهرة ملحوظة في الادب الصهيوني تميزه عن رفاقه « الابطال ـ الاشباح » في قصص الحرب العالمية الثانية وروايات الغرب الاميركي الرخيصة .

ان وصف هذه الحالة لا يمكن ان يكون في كلمة « المايوبيا » التي استعملها وولنرود ، بل هي مرض نفسي اشبه بالعقدة التي تستعصي على الشفاء ، تخفي وراءها شعورا عميقا بالتفوق العنصري المطلق .

في البدء ، وفي وقت مبكر ، سيطرح الكاتب اليهودي ياكوف رابينويتز (١٨٧٥ ـ ١٩٤٩) بطله آموساي في رواية تحمل الاسم نفسه : « انه رجل غير عادي ، يعيش بخطورة مستديمة وفي مسنوى كل الاحداث : يذهب دائما الى حيث يحتاجون اكثر ، يتبع هاجسا داخليا حين يترك المنظمة ويعمل في الزراعة ، ثم يعود الى واجبه كحارس حين تدعو الحاجة لذلك .. انه يتطوع من تلقائه لرشوة الجيش التركي الفاسد لمجرد انه يريد القيام بواجبه كي يكون قدوة للاخرين ، وفي غمار ذلك كله يقابل آموساي رجالا اغبياء ضعافاً متعبين ، ليبرز هو ، عكسهم ، كرجل المستقبل المثالي » (٣) واذا كان هذا الخطأ البشري مهلكا في حد ذاته فانه من الناحية الفنية المحضة ، سقوط كامل ، ذلك ان هذا البطل « يمر امام القارىء مثل الشبح ، بالرغم من مئات الصفحات المكرسة لمغامراته » (٤) ولا يبدو آن ولادة مثل هذا البطل المتفوق والمعصوم في بداية هذا القرن مصادفة : اذ سنرى في رواية افيغدور حميري ، المولود عام ١٨٨٦ ، عن الحرب الاولى (الجنون الكبير) ان « البطولة مفروضة بالقوة على النماذج .. فهم لا يريدون الحرب ولا يؤيدونها ، ولكن اذا ما اجبروا على القتال قاتلوا كما لم يقاتل احد » (٥) وسيواصل هذا البطل صعوده نحو هذه الصيغة غير البشرية ، الصيغة ـ العقدة حتى تصل الى زمن يصير فيه « المحامون الصغار غير المدربين وعلماء الحشرات وبائعو اللبن القادمون من برلين قادرين على اجبار اثنتي عشرة مصفحة سورية على الفرار ببضع طلقات غير مقصودة ... تلك البطولات التي لن يمل اليهود من ترديدها ؟ » (٦) وسيصير « اعتراف اليهودي الواقعي باعمالهم يشعرهم بالاهانة ، فعندما يبنون منزلا يشعرون بان الكلام لا يمكن له ان يعبر عن عظمتهم » (٧) .

ان هذا الموقف ـ انسانيا وفنيا ـ ستكون له نتائج خطيرة جدا على الدور الذي يقوم به الادب الصهيوني ، وسيكون الباب الذي ستعبر منه عقدة التفوق اليهودي الى موقف اخر ، هو الموقف العنصري الفاضح ، الذي سيؤدي بدوره الى الوقوف من الشعوب الاخرى ، والاديان الاخرى ، الموقف الذي كرسه هتلر .

بالنسبة للرواية الصهيونية فان مسألة فلسطين ملخصة بهذه الجملة ... « وعلى هذه الارض ذبح داوود جوليات ، ذبح جوليات .. واليوم : داوود اخر سيذبح جوليات اخر» (٨) ان البطل اليهودي هو نبي من طراز معجز ، يزيد من اعجازه كونه اداة غير الهية ، وذلك يجعله ، دونما شك ، مهرجا ليس غير .

ان شريطا لا ينتهي من هذا التهريج الذي يناقض ابسط مبادىء النماذج البشرية وابسط مبادىء العمل الفني يمر من امام عيني القارىء دونما نهاية في العمل الادبي الصهيوني . وبوسع هذا القارىء ان يرى كيف يستطيع سبعة رجال يهود نصف مسلحين في سيارة شحن معطوبة غنموها من معركة مع العرب ان يكتسحوا ، دونما اوامر ، بلدة الجيبة بالقرب من المجدل ويحتلوها دون آن يفقدوا رجلا واحدا ، وبسهولة تذهل فائدهم ذاته (٩) وسيستطيع ثلاثون يهوديا فقط نصف مسلحين ان يحتلوا عكا ويهزموا حاميتها التي « الله وحده يعلم كم كان عددها » بمثل لمح البرق (١٠) وتكاد تكون هذه هي الطريقة التي تؤدب بها حفنة من الصبية اليهود عددا هائلا من الغزاة العرب في صفد (١١) اما في القرى الممتدة من صفد الى عكا ، فقد تعين على « ٤٣ ولدا وبنتا يهوديا بالضبط » ان يواجهوا الغزو العربي ، وفي صفد نفسها يعطينا المؤلف رقما اكثر دقة : « ١٢١٤ يهوديا محاطون بـ ١٣٠٤٠٠ عربي .. آي بنسبة يهودي واحد لكل ١١٤١ عربيا » ومع ذلك فالمؤلف يسارع الى القول بان هذا الرقم ليس حقيقيا تماما لان معظم يهود صفد من الرجال المتدينين الذين لا يحاربون ، ولان العرب يسيطرون على الامكنة الاستراتيجية في المدينة .. وهذا ـ بالطبع ـ لا يؤخر تفوق اليهود واحتلالهم صفد بسهولة لا مثيل لها (١٢) .

والضابط الانكليزي مالكولم يقول في « اكسودس » : « انني احب الجنود اليهود ، المحارب اليهودي هو الافضل ، فهو مقاتل ومثالي في آن واحد .. ان رجال الهاغاناه يشكلون بلا تردد اعلى مستوى ثقافي وعقلاني ومثالي لرجل تحت السلاح في العالم اجمع » (١٣) وسيصبح موندك اليهودي « القائد العسكري لحركة المقاومة البولندية (ابان الحرب الثانية) رغم انه لم يكن يتجاوز التاسعة عشرة» (١٤) وسيستطيع يهودي اخر اسمه دوف وهو في الثانية عشرة من عمره فقط ان يصبح « احسن مزور وثائق بين المقاومين البولونيين » (١٥) وان يتصدى بمسدس لثلاثة اشرار مسلحين مشهورين بسطوتهم « فيجندل احدهم ويجبر الاخرين على الفرار » (١٦) وسيستطيع رجال البالماخ فيما بعد ، وقد نفد سلاحهم ، ان « يجبروا العرب على الفرار باطلاق صواريخ من الالعاب النارية واذاعة اصوات انفجارات بواسطة مكبرات اصوات معلقة على الاشجار في معركة دافنا» (١٧) ومقاتلون عرب من هذا النوع، بالطبع، سيعتقدون خلال احدى الهجمات اليهودية ان الجنود اليهود يستعملون القنابل الذرية ، ولذلك فسرعان ما يستسلمون باكين او يلوذون بالفرار وهم يهتفون هاشيروما بدل هيروشيما (١٨) وسيعلن دافيد في « اكسودس » انه « لم يحارب شعب ما ، في اي مكان ، في سبيل حريته مثلما حارب شعبنا » (١٩) وسيؤكد دافيد اخر هذا الاعلان فيقول « انني اتصور انه لم يعد يوجد في هذا العالم اي شجاع الا شعبنا اليهودي » (٢٠) وذلك يستلزم ، بالطبع ان نستخلص المعادلة التالية على يد راهب كاثوليكي اثر نقاش ساخن مع اليهودي : « ان الكاثوليكي يضع نفسه في يد الله ويترك المعجزات للقديسين ، ولكن اليهودي يجب آن يحمل نفسه عبء اجتراحها » (٢١) وهو يجترحها بالفعل فـ « انت لا تستطيع على الاطلاق ان تشتري يهوديا ليكون جاسوسا » (٢٢) بالرغم من ان « شخصا من اصل يهودي مثل كارل ليوجر لعب دورا ، وان كان غير مباشر ولكنه هام ، في اسوأ مجزرة ضد اليهود في التاريخ ، تلك التي حدثت في عهد هتلر ، هتلر نفسه قال ان

---

٣ ـ ٤ : نفس المصدر ص ٢٥
٥ ـ نفس المصدر ص ٨٥
٦ ـ فرانز جوزف شيدل ـ اسطورة اسرائيل (الترجمة العربية) ص ١١٣ .
٧ ـ ميكس ـ اللبن والعسل ، ص ٤٥
٨ ـ رواية « الانجلو ساكسون » بقلم لسير غورن (ص ٢٩٤)
٩ ـ الانجلو ساكسون ـ ص ٢٧٢
١٠ ـ الينبوع ـ ص ٨٦٠
١١ ـ نفس المصدر ص ٨١٦
١٢ ـ نفس المصدر ص ٧٨٣ .
١٣ ـ اكسودس ـ ص ٣٠٥ ـ ١٤ ـ نفس المصدر ص ١٣٠
١٥ ـ ص ١٣٥ ـ ١٦ ـ ص ١٣٨
١٧ ـ نفس المصدر ص ٥٣٥
١٨ ـ الينبوع ـ ص ٨٤٣ ـ ١٩ ـ ص ١٩٩
٢٠ ـ نجمة في الريح ـ رواية بقلم روبرت نانان ـ ص ٧٧ ـ
٢١ ـ ص ١٠٩
٢٢ ـ اكسودس ـ ص ١١٥ .

ليوجر هو اول من اقنعه بصواب اللاسامية ، ليوجر هو بطل هتلر » (٢٣)

وامام بطل من هذا النوع ليس على العالم الا ان يستسلم ، فاليجر الن اليستار ، قائد المباحث القبرصية الانكليزي يعلن انه ليس بوسعنا ان نفعل شيئا لنخيف اولئك (اليهود) » (٢٤) فهم في فلسطين «مسلحون، وليسوا ورآء الاسلاك الشائكة .. انهم يأكلون الرجال الصغار امثالك في وقعات الفطور » (٢٥) وعلى صعيد فكري ، فالصهاينة « جماعة في غاية الذكاء ، بوسع اي منهم اقناع البعير بانه بغل ، يا الهي ، ساعتان مع وايزمن كفت بعدهما انتسب ، انا نفسي ، للصهيونية» (٢٦) وهذا التفوق يشمل أيضا الصعيد الاخلاقي ، فاليهود الذين يلقون القنابل على المدن العربية يتعمدون الا يلحقوا دمارا أو ضحايا (٢٧) في حين ان القنابل العربية ، للدهشة ، لا تقتل الا الاطفال (٢٨). وسنجد فجأة ان يهودا غلاظا أفظاظا على ظهر السفينة القادمة الى فلسطين يتكشفون ، في اللحظة المناسبة ، عن روائع أخلاقية وقتالية تفاجئهم هم أنفسهم (٢٩) وأنه « اثناء عزف قطعة لتشايكوفسكي تقصف الطائرات العربية تل أبيب ، الا أن أحدا من الحضور لم يهتم أو يتحرك .. فبوسعهم أن يموتوا في أي وقت ولكن الجمال شيء نادر » (٣٠) وحتى لو كانوا خائفين فان ثمة ما هو حقيقي أكثر من الخوف : « حس الفكاهة اليهودي الذي لم يجف عبر ألفي سنة من التيه » (٣١) واذا اجبر قصف المدفعية السورية الغزير يهود مستعمرة عين جف على العيش تحت الارض فان « المدارس ستستمر في العمل تحت الارض ، وكذلك ستصدر الصحيفة وستواصل الاوركسترا السيمفونية الخاصة بالمستعمرة تمريناتها » (٣٢) وسيبلغنا ميتشنر في « الينبوع » أنه يوجد لدى كل عائلة في اسرائيل من هو عالم اثار (٣٣) ، واذا طلب من هؤلاء الناس المثاليين أن يحاربوا فسيكون « مجرد اصطدام ، وقد انتصرنا طبعا ، فالجبناء (العرب) لم يقاتلونا رغم أن بعضهم كان جيدا حقا » (٣٤) ولا بد أن تؤدي هذه الفضائل مجتمعة الى اعتراف مسيحي مذهل ، فكيتي المسيحية « تعلمت بأن من المستحيل على المرء ان يكون مسيحيا اذا لم يكن يهوديا بالروح » (٣٥) بالرغم من أن كيتي هذه قد تعذبت عذابا ممضا ، الا أن هذا العذاب يتخذ الشكل التالي :

« مارك : لقد تعذبت كيتي فرمونت اكثر مما يحق للشخص الواحد أن يتعذب .

آري : تعذبت ؟ انني أتساءل عما اذا كانت كيتي فرمونت تعرف معنى هذه الكلمة .

مارك : عليك اللعنة يا ابن كنعان ، ما الذي يجعلك تعتقد أن اليهود يملكون كل حقوق العذاب ؟ ... انني أحب اولئك الذين يتمتعون بالضعف الانساني .

آري : ليس عندي مثل هؤلاء الناس في ساعات العمل ! » (٣٦).

ولما لم يكن عند البطل اليهودي رجال يتمتعون بالضعف الانساني في ساعات العمل فان البطل المعصوم يضحي جاهزا ، يسير عبر انتصار مطلق لا تتخلله لحظة تردد واحدة ، وفنيا يضحي اكسودس نموذجا لتلك الحقيقة الصارخة : « لا يوجد آي ارتباك في معرفة البطل السافل، ولا غموض في تعريف الخطأ والصواب ، والمشكلة الرئيسية هي أن أشخاص الرواية لم يخرجوا الى الحياة أبدا ، فهم مطيات للتعبير وليسوا اشخاصا متميزين » (٣٧) وهذه الحقيقة تعني بلا مواربة تجند الادب الصهيوني للتعبير عن قضية سياسية مسبقة دونما آي اعتبار لاية حقيقة ، ومهما كان ثمن تشويهها أو تجاهلها ، وسيؤدي ذلك الى التفرج على معركة طريفة لا تجرؤ مغامرات « مايكي ماوس »الكاريكاتورية على الاتيان بمثلها ... وسنشهد في هذه المعركة كيف سيستطيع ركاب سفينة « أرض الميعاد » المهاجرون بالسر الى فلسطين أن يردوا جنود المدمرتين البريطانيتين ابيكس ودانستون هل المسلحتين بمجرد قذفهما بالحجارة وخراطيم المياه في معركة تستمر خمس ساعات (٣٨) . ولا يذكر المؤلف شيئا حقيقيا وهاما وهو أن اليهود أنفسهم هم الذين نسفوا سفينة المهاجرين « بارشيا » وهي راسية على مقربة من الشاطىء « فأغرقوا ٢٥٠ شخصا حتى يخلقوا دعاية تحرج برطانيا وتدفع سياسة

٢٣ ــ كتاب « سيغموند فرويد والتقاليد اليهودية الغيبية » ــ دافيد باكمان ــ ص ٣٠ .

٢٤ و ٢٥ : اكسودس ــ ص ١١٥ .

٢٦ ــ اكسودس ، على لسان برادشو أحد ألد أعداء اليهود في الرواية ــ ص ١٩١ .

٢٧ ــ نجمة في الريح ص ١٣٧ .

٢٨ ــ نفس المصدر ص ١٤٤ .

٢٩ ــ نفس المصدر ص ١٢٥ .

٣٠ ــ نفس المصدر ص ١٥٩ .

٣١ ــ نفس المصدر ص ١١٧

٣٢ ــ اكسودس ، ص ٥٥٨ .

٣٣ ــ الينبوع ــ ص ٢٧ (وكأن المؤلف يندم فيما بعد على هذا التواضع فيعود في نهاية روايته يؤكد أن كل يهودي في اسرائيل هو في الواقع « عالم اثار » ! ــ الفصل الاخير) .

٣٤ ــ طوبى للخائفين ــ يائيل دايان ــ ص ١٣٠

٣٥ ــ اكسودس ــ ص ٥٠٥ (نفس الاستنتاج والمواقف في رواية الينبوع ــ ص ٤٦٨ ــ ص ٤٧٠ ــ ص ٦٨٢ ، حيث يكتشف المسيحي فجأة أنه ، في الواقع ، أكثر يهودية منه مسيحية ، وأن الدين المسيحي ليس الا زهرة على جذع الشجرة اليهودية)

٣٦ ــ اكسودس ص ١٧٨

٣٧ ــ مجلة Issues الاميركية اعتمادا على ست دراسات حول رواية اكسودس نشرت خلال ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ في ست صحف اميركية (النص الكامل : مجلة فلسطين ــ ملحق المحرر ــ بيروت : العدد ٤٤٠ ــ ١٧-١٢-١٩٦٤) .

٣٨ ــ اكسودس ــ ص ١٦٦ .

صدرت الطبعة الثانية من كتاب :

قصة القرحة

للدكتور منذر الدقاق

عضو المجمع الطبي الاميركي لامراض جهاز الهضم

- اوسع دراسة علمية مبسطة لموضوع القرحة الهضمية
- مزود بالصور والاشكال الملونة
- يهم كل مريض مصاب بالقرحة او يخاف القرحة

يطلب من دار العلم للملايين . ثمن النسخة ٤ ل. ل.

الهجرة الى الامام » (٣٩) .

ان الرواية الصهيونية لا تضخم الحقائق وتنفخها بالمبالغة ولكنها تخترعها أيضا ، وتعترف رواية « لصوص في الليل » لارثر كوستلر بانه بعد عام على وفاة الشاب نفتالي (الذي كان مشهوراً بجبنه) نتيجة لطلقة اخترقت رأسه لانه لم يستطع أن يحتفظ به منخفضا « أضحى بطلنا وقديسنا المحلي » (٤٠) . وتكتشف يائيل دايان هذه السخرية في « طوبى للخائفين » فتقول على لسان جيديون : « أيتها الكلبة الصغيرة ، أخرجي من هنا ، اذهبي الى يودي وابني معه الارض وانجبي منه ستة أبطال » (٤١) وفجأة يكتشف المراقب أن هذه العقدة ليست من اختراع الادب فقط حين يستمع الى بن غوريون يقول : « ان انتصارنا في سيناء لم يكن النصر الاكبر في تاريخ اسرائيل فقط ، بل انه النصر الاكبر في تاريخ العالم قاطبة » ! (٤٢) ويعترف امنون كابيليوك بظاهرة هي نتاج ذلك كله : « بعد كل ما نقول ونفعل ، ننظر (الى العرب) من عل ، ولا ناخذهم جداً ، اننا نشعر بالتفوق عليهم وانه من الصعب التصور بان هذا الشعور سيختفي ذات يوم .. » (٤٣) ويقول عربي من الارض المحتلة بمرارة ان ثمة قناعة بديهية في اسرائيل ، هي أن « اليهود سيعلمون العرب كيف يرتقون ببلادهم ! » (٤٤) .

***

لم يكن هذا التبجح بالتفوق المطلق والعصمة الغيبية دون نتائج ، بل أدى الى موقف عرقي واضح الى حد يستطيع الناقد أن يستنتج معه بأن التيار الاوروبي والاميركي الذي استلبـــه الاعجاب بالادب الصهيوني ، وخصوصا ب « اكسودس » كان يلبي بذلك ، في أعماقه ، حاجات موقف عنصري خفي : فأهم ما في هذا الانتاج ليس التفوق اليهودي فحسب ، بل الموقف من الشعوب الاخرى وخصوصا العرب ، وهو موقف لا يمكن أن يوصف الا بأنه موقف عرقي .

وفي الاساس لم تكن الدعوى الصهيونية قادرة على تبرير غزوها لفلسطين الا بالمبررات التي اعتمدها كل غزو اخر في التاريخ ، وهـو التفوق البدني والحضاري والذهني والاخلاقي ، ولكن هذه الدعوى لها وجهها الاخر الملتصق بها ، وهو الطريقة التي ينظر بها الغازي الى الشعب الذي يتعرض للغزو .

الا أن الحركة الصهيونية ، في الرواية ، كانت مطالبة بتغطيـة قضيتين في آن واحد ، داخل هذا النطاق ، الاولى تبريرها لرفـض اندماج اليهود في المجتمعات التي عاشوا فيها في الخارج ، والثانيـة تبرير اقتلاع شعب كامل من أرضه .

يقول ناحوم غولدمان « لقد كان الغرض مـــن الدولة اليهودية الحفاظ على الشعب اليهودي الذي كان يهدده رفع القيود والاندماج » (٤٥) ولكن ناحوم غولدمان نفسه ، فيما بعد ، سيطالب يهود الولايـات المتحدة بالاندماج في المجتمع الاميركي ، وستكتشف مجلة « الجويش اوبزرفر » أنه « فقط في الاتحاد السوفياتي والبلاد العربية يتعـرض اليهود لمشكلة ازدواجية الولاء » (٤٦) وسيقفز غولدمان خطوة أخرى، فيعلن أنه ليس من الضروري العمل ضد اندماج اليهود حتى في الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية (٤٧) . وليست هــــذه السلسلة من

٣٩ ـ نفس المصدر رقم ٣٠ ـ وبالفعل رضخ اللورد هاليفكس للمناورة وسمح لبقية اليهود على تلك السفينة وعددهم ١٧٥٠، بالدخول الى فلسطين (تشرين الثاني ١٩٤٠) .

٤٠ ـ لصوص في الليل ـ آرثر كوستلر ـ ص ٧٠ .

٤١ ـ ص ٦٢ .

٤٢ ـ خطاب رسمي في تل ابيب ـ ١٥ أيار ١٩٥٨ .

٤٣ ـ نيواوتلوك ـ تل ابيب ـ العدد ٥٣ ـ ايار ١٩٦٣ .

٤٤ ـ راشد حسين ـ نفس المصدر السابق .

٤٥ ـ ألن تايلور ـ مقدمة الى اسرائيل .

٤٦ ـ العدد ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٢ .

٤٧ ـ عن الصحف ـ نقلتها رويتر من نيويورك يوم ١٢ـ٤ـ١٩٦٧

التناقضات الفظة الا دليلا على ما ستواجهه الرواية الصهيونية مـن اشكالات في هذا النطاق : فمناورات سياسية تتراوح على هذه الصورة لا يمكن أن تتردد في العمل الادبي ، فهو يواجه المسألة بوضوح أشد ، ويكشف حقيقة الموقف العرقي الذي يؤدي الى رفض الاندماج .

في العمل الفني الصهيوني تتعرض كل شعوب العالم للاحتقار بدرجة او باخرى ، فالبولونيون جبناء ، والالمان برابرة ، والاتـراك مرتشون ، واليونانيون اذلاء ، والعرب فرارون وخونـــة ، والانجليز متواطئون ، والاميركيون انتهازيون ... الخ .

« فربما يكون ارماتو تركيا ، ولكنه (للعجب !) رجل يمكـن أن يوثق به » (٤٨) وكان من الممكن لماندريا اليوناني أن يغضب لان آري اليهودي « قد طلب اليه الخروج من الغرفة مثل سائق ، ولكنه كـان قد اعتاد على أخذ الاوامر من آري » (٤٩) ، وكانت « قلة قليلة مـن البولونيين قد عرضت نفسها لخطر ايواء اليهود (اثناء المجازر الهتلرية) واخرون استنزفوا اخر فلس من اليهود ثم سلموهم الى الالمان مقابل مكافأة » (٥٠) واذا كانت بولونيا باجمعها لم تصمد امام هتلر الا ٢٦ يوما ، فان اليهود ، بثلاثين شخصا وعشرة مسدسات وست بنادق قد صمدوا أكثر بكثير (٥١) ولم يفعل الانكليز في فلسطين الا أن رمـوا بثقلهم الى جانب العرب ومارسوا اضطهادا لا مثيل له ضد اليهود (٥٢)،

٤٨ ـ اكسودس ـ ص ٥٣ . ٤٩ ـ نفس المصدر ـ ص ٥٦ .

٥٠ ـ نفس المصدر ـ ص ١٣١ .

٥١ ـ نفس المصدر ـ ص ١٤٥ (وايضا ص ١٤٦) .

٥٢ ـ ومع ذلك فقد كان تقرير دولي رفعته لجنة هايكرافت الى فلسطين عام ١٩٢٠ قد « عزا أسباب اندلاع العنف في يافا (ايار) الى الاجحاف الذي لحق بالعرب من جراء المخطط الصهيوني وممالأة البريطانيين لليهود والعدد غير المتناسب من اليهود الموجود في الخدمة العامة والتوسع المتجاوز حدوده في صلاحيات اللجنة الصهيونية » . (راجع ألن تايلور ـ مقدمة الى اسرائيل ، وراجع مجموع الشهادات العربية امام اللجنة الملكية البريطانية في ١٩٣٨ جمعها جميل الشقيري وصدرت عن مطبعة الاعتدال في دمشق ـ ١٩٣٨ وفيها تصوير بالوثائق والارقام عن وضع العرب في ظل السياسة البريطانية وضغط الهجرة اليهودية) ـ الا أن سلسلة هذه الحقائق لا تعني الروائيين الصهيونيين بقليل أو كثير ، ولا توجد اشارة واحدة في أية رواية صهيونية الى نضال عربي ضد الاستعمار البريطاني ، وبالاضافة للتجاهل الثورات العربية فان بعض المؤلفين ، اذا ما أشاروا الى واحدة منها ، يسمونها « ارهابا » (كوستلر) ويصرون على أن الانكليز كانوا مع العرب ضد اليهود ، وحتى في موضوع السماح البريطاني بهجرة اليهود الى فلسطين يقول اوريس « كان يسمح البريطانيون بدخول ١٥ الف يهودي الى فلسطين بالشهر ، وكانوا يختارونهم من العجائز أو الصغار الذين لا يصلحون للقتال » (اكسودس ـ ص ٩٨) ويدخل هذا الموقف في صيغ المبالغة الرخيصة : فلمراسل رويتر الانكليزي في حرب فلسطين يتجسس لصالح العرب (اكسودس ـ ص ١٤١) والذي نسف حي بن يهوذا في القدس « ضابط انكليزي وعده الحج أمين بخمسمئة جنيه لم يدفعها له » (اكسودس ـ ١٤٢) وفي اكسودس يركز الكتاب تركيزا متواصلا على هذه النقطة ويصور المعركة بأنها حلف بين الانكليز والعرب ضد اليهود . نفس الموقف في « الاغراء الاخير » لجوزيف فيرتيل خصوصا بعد نسف فندق الملك داود حين « كان الجنود الانكليز يعاملون الجماهير الفلسطينية بفظاظة ووحشية ، ونقط العرب كانوا يعاملون بأدب » (ص ١٤٦) وتصور الرواية المعركة قائمة مع الانكليز وتضعها على لسان البطل بالصيغة التالية « ذات يوم ستضحي هذه البلاد لنا وسيذهب الانكليز الى بلادهم » ص ١٥٤ ـ الموقف ذاته في رواية الانجلوساكسون وفي نجمة في الريح (ص ٧٧) وفي لصوص في الليل وفي « في اعقاب خيال عملاق » حيث يتهم المؤلف ترومان انه متحيز للعرب (ص ٩٥) ويهاجم الانكليز بعنف على أساس دعمهم للعرب في معظم اجزاء الكتاب .

والاميركيون يساعدون اليهود « لانهم يحسون بانهم متهمون ، انهم يرشون ضمائرهم .. » (٥٣) .

ولكن ذلك كله لا يقاس بالموقف من العرب ، واذا كان بوسع القارىء أن يفهم طبيعة الموقف الصهيوني المؤلف يعتبر العرب عدواً مباشـرا وبالمواجهة ، فان المبالغة هنا في تصغير العربي واحتقاره لا يمكن أن يكون مجرد عمل تفرضه ضرورة معركة ساخنة ، انه أكثر من ذلك بكثير : انه تبرير للاجتثاث ، ورفض مطلق لايجاد سنتمتر مربع واحد من الارض المشتركة يمكن اقامة حوار فوقها .

ما هي معركة فلسطين بالنسبة للعرب في الروايات الصهيونية ؟ انها ، بلا تردد ، ترف لا ضرورة له . ارتزاق ورشوة واندفاع مأجور . ان الصورة هذه تكتسب تعاستها المحزنة من النتيجة التي ترمي اليها : فاليهود المهاجرون القادمون من اوروبا ، الذين فقدوا كل صلة واقعية بالارض الفلسطينية كوطن منذ الفي عام هم الذين يستميتون في سبيل هذه الارض أمام الشعب الذي عاش فوقها ولها الفي عام !

ان ستمئة صفحة من « اكسودس » مثلا ، ترتصف فكرة وراء فكرة لتنتهي بالمؤلف الى هذا القرار : « لو كان عرب فلسطين قد احبـوا ارضهم لما كان بوسع أي كان طردهم منها ، بله الهرب منها دون سبب حقيقي ، لقد كان لدى العرب قليل من الاشياء ليعيشوا من أجلها وأقل من ذلك ليقاتلوا في سبيله ... وذلك ليس ردة فعل رجل يعشـق ارضه » (٥٤) . ان هذه الدعوى هي مجرد تبرير ، فالتفصل من مواجهة الحقيقة يرغم المؤلف على الاستسلام للتضليل .

ان المؤلف الصهيوني المطالب دون ريب بتبرير الاجتثاث يختـار اصدار حكم بعدم جدارة العرب بوطن ، واذا كان المؤلفون الصهاينـة قبل حرب فلسطين قد نجحوا في تجنب الحديث عن الكيفية التـي سيحولون فيها وطن شعب اخر الى وطن قومي لليهود (النمـوذج : الارض القديمة الجديدة لهرتزل) فان المؤلفين المعاصرين ارغموا على التعرض لهذه النقطة لانها وقعت بالفعل ، ولكنهم اختاروا اللجوء الـى موقع قريب من الاعلان بأن العرب ، كشعب ، غير جدير بالحياة اصلا.

ولا يعرف أحد الى الان نظرية تتيح لشعب « راق » أن يجتـث شعبا متخلفا الا النازية ، ولكن اذا كانت تلك النظرية قد رفضت على نطاق عالمي وتاريخي ، فان الرواية الصهيونية التي تمثلها من جديد ، بطريقة معكوسة ، قد قبلت لدى قطاع واسع من القراء الغربيين : ومع ذلك فان التركيز الصهيوني على التخلف العربي كان هو الاخر محض افتـراء .

لقد كانت الرواية الصهيونية مطالبة بأن تبرر سلوك الحركة التي ادت الى هذه المهزلة الانسانية ، واذا كان من سوء حظ العرب ، وهذه بدورها مهزلة لا تقل عن تلك ، أن يكونوا الاعداء المباشرين لتلك الحركة، فقد كشفت الصهيونية عن موقفها الحقيقي من الشعوب ، اكثـر مـا يكون ، في الحديث عن العرب .

فالعرب « خبراء في البناء فوق حضارات الامم الاخرى » (٥٥) وهم « لم ينتجوا شيئا يستحق المشاهدة الا كباريهات وكرتات بوستال حقيرة ، من طنجة الى طهران ، في الالف سنة الاخيرة » (٥٦) وهم اذا خاضوا معركة ليس لديهم أي حافز لها و « اذا ماتوا فانما في سبيل حكامهم وأفنديهم أو في سبيل النهب ، أما اليهود فيموتون من أجـل سبب افضل » (٥٧) و « رئيس الوزراء المصري يبيع الاسرار للالمان ، والقاهرة بأجمعها خرجت للترحيب برومل ، العراقيون يتجهون للالمان، السوريون يتجهون للالمان ، مفتي القدس عميل نازي » (٥٨) والاطفـال العرب تبدو حياتهم « عديمة النفع ، عكس معنويات الاطفال اليهود ، لم يكن يبدو أي نوع من المرح والاغاني والالعاب أو الاهداف بين الاطفال العرب ، كان وجوداً جامدا ، جيلا جديدا يولد في قافلة أبدية تسيـر في صحراء لانهائية » (٥٩) وتصويب العرب ، حتى التصويب ، ليس جيدا ، وهم يتركون موتاهم وراءهم فيقوم اليهود بطمرهم (٦٠) واذا كان صحيحا أنهم يعرفون قيادة الدبابات فانهم يفعلون ذلك وهم بالجلابيب (٦١) واليهودي يستطيع بسهولة شراء اي تركي ولكنه يعرف ايضا انـه ليس بالوسع التفاهم مع أي عربي الا بقبضة اليد (٦٢) ويغرد آرثـر كوستلر سبع عشرة صفحة لوصف تقاليد قرية عربية وصفا ساخـرا استعلائيا لا يطاق (٦٣) وحين يتحدث عن عملية بيع أرض في قريـة عربية أخرى يبلغنا أن « كل كبير عائلة في القرية هذه كانت تتوجـب رشوته على حدة ، ثم أخذت بصمات الـ ٥٦٣ فردا من سكان القرية بما في ذلك الاطفال والبهاليل » (٦٤) ويكرر كوستلر على مسامعنا أيضـا تلك الجملة التي توقد بالعادة خيال الاوروبيين وسخريتهم حين لا يمل من الاستعاضة عن جملة « قرر الاب تزويج ابنه » بجملة « قـرر أن يشتري لعيسى زوجة طيبة بغض النظر عن الثمن » (٦٥) ويعزف اوريس أيضا هذه النغمة المفرية حين يقول البطل اليهودي لكيتي الاميركية أن عربيا « أراد أن يشتريك ، دفع بك ستة جمال » (٦٦) وأمام « المقاتل اليهودي الشريف » « يزحف العرب فوق التراب والسكاكين باسنانهم » (٦٧) وفي الاحيان الاخرى « يزحفون ببطء يتبعهم ضباط الفـرقة مجبرينهم على مواصلة الزحف بتصويب بنادقهم الى ظهورهم » (٦٨) وحين يبلغ أحد القادة فوزي القاوقجي أن رجاله قرروا القتال حتـى اخر نقطة من دمائهم فعلى القارىء أن يتوقع بأن ذلك ليس بسبب حافز فاضل أو عميق ، فالقاوقجي ، وقد سمع هذا الخطاب، يقول : « حسنا، انهم يكلفوننا حوالي دولار واحد في الشهر كراتب لكل منهم » (٦٩) ولما كان العربي مستعدا ، في سبيل دولار واحد بالشهر أن يفقد حياته، فانه من الطبيعي اذن أن يدور الاطفال العرب في الشوارع يعرضون على اليهود مضاجعة اخواتهم العذراوات (٧٠). وحين « ترفض أية يهودية أن تعيش مع أحد الضباط الانكليز ، ولم يكن بالوسع ايجاد فتاة انكليزية ، فانه جاء بامرأة عربية » (٧١) وعلى صعيد الشجاعة الفردية فان العرب أكثر من ذلك تعاسة ، فهم « دون أن يقاتلوا من وراء تحصينات مـن اسمنت مسلح فلا قيمة لهم على الاطلاق...أن تمشي للقاهرة والسويس ليس أكثر من أن تقطع الزبدة بالسكين » (٧٢) ويدلي الضابط الانكليزي مالكولم في « اكسودس » بشهادة نادرة : « اذا خرج عربي من قهوته

٥٣ ـ اكسودس ـ ص ١٢٣ .
٥٤ ـ اكسودس ـ ص ٥٨٨ .
٥٥ ـ اكسودس ص ٣٣٧ .
٥٦ ـ لصوص في الليل ص ١٨٠ .
٥٧ ـ نجمة في الريح ـ ص ١٨٦ .
٥٨ ـ اكسودس ، على لسان الجنرال الانكليزي براون ـ ص ٣٨
٥٩ ـ اكسودس ، على لسان كيتي الاميركية ـ ص ٣٧١ .
٦٠ ـ نجمة في الريح ص ٢٠٢ .
٦١ ـ نجمة في الريح ـ ص ٢٠٧ .
٦٢ ـ اكسودس ـ ص ٢٤٤ .
٦٣ ـ لصوص في الليل من ص ١٠٣ ـ ١٢٠
٦٤ ـ لصوص في الليل ص ١٤ .
٦٥ ـ نفس المصدر ص ٢٧ واماكن اخرى .
٦٦ ـ اكسودس ـ ص ٣٧٧ .
٦٧ ـ اكسودس ـ ص ٣٠١ .
٦٨ ـ اكسودس ـ ص ٥١٨ .
٦٩ ـ اكسودس ـ ص ٥٢١ .
٧٠ ـ اكسودس ص ٣٥٧ : « طرد آري من حوله جماعة من الصبية العرب الا أن أحدهم ظل يلاحقه ويسأله : أتريد دليلا ؟ ـ لا ! ـ تذكارات؟ خشب من الصليب ومزق من الثوب ؟ ـ لا ، انصرف ـ اتريد صورا عارية ؟ عندها حاول آري ان يجتاز الصبي الا. ان الاخير تمسك بساقيه وقال : ربما تعجبك أختي ، انها عذراء ! . رمى آري قطعة نقد للطفل وقال له « أحرس السيارة بحياتك ذاتها ! » .
٧١ ـ اكسودس ـ ص ٤٣٢ .
٧٢ ـ الانجلوساكسون ـ ص ٣٤٧ .

وأطلق طلقة طائشة على كيبوتز من بعد ألف يارد يعتقد بانه رجـــل شجاع ، لقد آن الاوان لنختبر اولئك القواويد الجهلة » (٧٣) ولذلك كله يتمشى اليهود في نزهات فيرون القرى العربيـــة مهجورة « لان سكانها قد خيروا من قبل الملك عبد الله بين أن يغادروا ، الامر الذي لا يريدونه ، وبين أن يهربوا ، الامر الذي نفذوه » (٧٤) ولذلك أيضـــا فانهم « لا يستطيعون آن يلعبوا بعنف ، يلعبون بوضاعة ! » (٧٥) واذا كان الوضع كذلك فبوسع اليهودي جوسي ، مسلحا بكرباج فقط ، أن يقتحم مضرب قبيلة بدوية جميع رجالها مسلحون بالبنادق ويجلد رئيسها أمام أعين الجميع ، ويجبره على طلب الرحمة ويؤدب بذلك كل القبيلة دون أن ترمش له عين (٧٦) وسنشهد ، تبعا لذلك ، منظرا طريفا : فقد اصطف جمهور يهودي في مستشفى للتلقح ضد التيفوئيد ، وبينهم كان يقف عربي ضخم بملابس مزوقة وطربوش ، كان اليهود يخرجون مـــن غرفة التلقيح دون أن يبدو على وجوههم ما يعبر عما حدث لهم « وبعد أن دخل العربي للعيادة بلحظات سمعت في الخارج أصوات غاضبة ، ثم صرخة غير بشرية ، وعم الصمت » وبعده دخلت السا مع ابنهـــا دافيد (٧ سنوات) وبعد أن أخذ اللقاح « قالت السا للدكتور البرت « اخشى انه لم يكن شجاعا يا دكتور » فقال الدكتور البرت : اشجـــع بكثير من العربي الذي كان هنا » (٧٧) وسنشهد منظرا اخر في الرواية ذاتها نرى فيه عددا هائلا من العرب تكوموا على يهودي واحد فـــي القدس ومزقوه وأركنوا للفرار بمجرد ان أتى عدد من فتية الهاغاناه(٧٨)

٧٣ ــ اكسودس ــ ص ٣٠٦ .
٧٤ ــ نجمة في الريح ــ ص ١٦٤ .
٧٥ ــ نجمة في الريح ــ ص ٧١ .
٧٦ ــ اكسودس ــ ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ .
٧٧ ــ الاغراء الاخير ــ ص ١٣٤ ــ ١٣٦ .
٧٨ ــ الاغراء الاخير ــ ص ١٧٥ .

صدر حديثا :

النزعة العقلية في تفكير المعتزلة

تأليف علي فهمي خشيم

استاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الاداب بالجامعة الليبية

●

أكواخ الصفيح

ديوان شعر

للشاعر لطيف عبد اللطيف

من منشورات مكتبة الفكر

طرابلس ، ليبيا ، شارع عمرو بن العاص رقم ٤٣

اطلبوا من مكتبة الفكر منشورات دار الاداب ــ بيروت

وبوسع القارىء أن يشهد المقارنة في تلك الحيرة الشديدة التي انتابت صبية يهودية تجيد الانكليزية والالمانية والدانمركية والفرنسية والعبرية في دكان عربية لا يستطيع من فيها « سوى الرطن بالعربية » واذا كان هذا وحده دليلا قاطعا على عبث الالتقاء بين ذلـــك التفوق اليهودي والتخلف العربي فان المدهش أكثر هو أن « أرض تلك الدكان لم تكن قد كنست منذ عشر سنوات على الاقل » (٧٩) ان شعبا من هذا المستوى، لو فكر أحد أفراده بأن « يذهب الى جورداناً (اليهودية) ويقول لها أنه يحبها .. فانها ستبصق عليه حتما » (٨٠) ويلاقي هذا المسكين مصيرا أسوأ ، فحين ذهب ليسأل شقيق جوردانا آن يزوجها له «انطلقت قبضة آري وسحقت فك طه .. وارسلت العربي راكعا علـــى ركبتيه وراحتيه ! » (٨١) كجواب لتجرؤه الفظيع !

ولكن هذه النماذج كلها لا تعني بالطبع انه لا يوجد ، الى جانبها ، « مديح » بالعرب ، وهو مديح أكثر سوءا من التهجم ذاته ، ولا يـــأتي الا لخدمة فكرة التفوق اليهودي والجدارة بالارض وهي فكرة الروايات الصهيونية الاساسية .

سنجد في « اكسودس » عربيا يعطف المؤلف عليه عطفا شديدا ، لانه يعتقد ، بالطبع ، « ان اليهود هم الخلاص الاوحد للشعب العربي .. انهم الوحيدون الذين جلبوا الضوء الى هذا الجزء من العالم فـــي الالف سنة الاخيرة . » (٨٢) واذا أتيح لبطل عربي أن يدلي بوجهـــة نظره في العراك القائم فانه سيقول عادة : « ليأخذهـــم (اليهود) الشيطان .. ولكن ليترك لنا تراكتوراتهم ، انهم كلاب واولاد كلاب ولكنهم يعرفون كيف يعملون.. غدا سيزرعون بندورة وبطيخا وما يعلمه الله في هذه التلة الصخرية ... اننا والله كسالى جدا يا أبو » (٨٣) وسنجد في « الينبوع » من تأليف جيمس أ. ميتشنر بطلا عربيا اسمه جميـــل طبري (يكتبه المؤلف : جمايل) يتولى في الالف صفحة التي تفـــرش الرواية نفسها فوقها الدفاع عن اليهود واثبات جدارتهم وحقهم بفلسطين بعد أن كان ــ لاعطاء موقفه قيمة أعمق ــ قائد المقاومة العربية في عكا اثناء حرب ١٩٤٨ . انه يشرح لزملائه الاجانب ان حـــرب ١٩٤٨ كانـــت غزوا عربيا من اناس جاءوا من الصحراء مدهوشين أمام المزارع اليهودية (ص ٢٥٠) ويفهم الاحتلال الصهيوني لفلسطين على أنه حق اكتسبـــه التفوق اليهودي مزايدا بذلك على وجهة نظر البطل اليهودي الاكثـــر تواضعا (ص ٧٦٤) وان العرب أكثر الناس في التاريخ قدرة على تدمير الارض المزروعة واحالتها الى صحراء حيثما ذهبوا ولذلك فهم جديرون باسم « اباء الصحراء » بدلا من اسم ابناء الصحراء (ص ٧٦٥) واذا تطرقت به « الوطنية » فان أقصى مطالبه هو التوسل لليهودي بـــأن يشعره بأن له مكانا في المجتمع الاسرائيلي (ص ٩٠١) وان يعلـــن بأن على العرب أن يلجأوا الى الروح الرياضية الانكليزية بقبول الهزيمة لانه ... « اذا فعلنا ذلك فربما توصلنا الى المكان الذي تركنا فيـــه اليونانيون منذ ألفي سنة » (ص ٣٤٢) بل أن هذا العربي هو الذي ينزع من رأس اليهودي فكرة أن يكون العرب قد حاربوا الصليبيـــين ويقنعه بأن ذلك لم يحدث (ص ٥٦٦) وهو الذي يتولى اعطاءه افكارا مغلوطة وحقيرة عن الدين الاسلامي (ص ٧٦٨) واذا كـــان المؤلـــف الصهيوني عمليا لا يطمع بأكثر من هذا المديح لليهود والتصغير للعرب، الذي حشاه في فم شاهد عربي فان الشهادة تأتي في احيان أخرى من « حليف » للعرب (أي الانكليز) . يقول جون هاليوال الانكليـــزي : « ذلك الشاب مصطفى ، الرجل الذي يمتلك كل هذه البيوت هنا (في القطمون) أنت تعرفه ؟ شاب رائع بصورة شيطانية ، لم يقل أية كلمة

ــ التتمة على الصفحة ٧٨ ــ

٧٩ ــ اكسودس ــ ص ٤٠٠ .
٨٠ ــ اكسودس ــ ص ٣٦٩ .
٨١ ــ اكسودس ــ ص ٥١٥ .
٨٢ ــ اكسودس ــ على لسان كمال ــ ص ٢٧٩ .
٨٣ ــ على لسان شاب عربي في « لصوص في الليل » ــ ص ٣٥

الفطرسة والعنصرية في الرواية الصهيونية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨ ـ

ضد العبرانيين ، مؤدب ورائع كأقصى ما يمكن .. لقد تناولت غدائي عنده في الاسبوع الماضي ، على البلاط ... جذاب حتما » (٨٤) ان هذا الملاك الاقطاعي الذي لا يعرف الطاولة بعد هو رمز للتخلي عن قضية الساعة ، انه لم يقل أية كلمة عن اليهود في وقت تلتهب فيه البلاد بالحرب .

على أن أطرف هذه النماذج يجيء في رواية « الينبوع » حين يحمل المستر بروك وزوجته ، وهما عجوزان اميركيان يعملان في تصوير الامكنة المقدسة ، على اسرائيل .. وهذه الحملة الانتقادية تأخذ الشكل التالي :

« تذهب الى بقعة مقدسة مثل طبريا ، آملا أن تجد شيئا يؤثر في أناس من اوتاوا .. فماذا تجد ؟ مشاريع اسكان ، محطات سيارات، فنادق سياحية .. وعلى حافة تلك البحيرة المقدسة ماذا ؟ كيبوتز ! انني اذكر حين أتينا هنا للمرة الاولى كنا نستطيع أن نجد في معظم القرى بئر ماء تبدو تماما كما لو أنها من أيام المسيح .. أما الان فلا شيء الا الابار الارتوازية العميقة .. لقد شعرنا ، زوجتي وأنا ، بالالفة أكثر على الجانب الاخر من الحدود ، في الاردن .. لقد حافظوا هناك على بلادهم كما كانت (!) أعني أنك تستطيع أن تجد في الاردن اليوم مئات من المناظر لاناس في ازياء العهد القديم ، وحميرا صغيرة ، واطفالا بوجوه ملائكية يلعبون قرب ابار المياه المفتوحة ... » (ص ٨٦٢) .

أمام هذا « الانتقاد » لاسرائيل ، والمديح للعرب ، يبرىء المؤلف ذمته ومستواه الفني بطريقة تهريجية مضحكة ، محافظا على رسالته الدعاوية الى أقصى حد ...

أما عندما يلتهب النقاش بين وجهات النظر المتصادمة فسيتولى العربي نفسه ، من حيث رغبته في الدفاع ، عرضا رائعا للمبررات الصهيونية .

يقول اليهودي للعربي : « هذه التلة لم تنتج منذ تركها اجدادنا ، لقد اهملتموها وتركتم مدرجاتها تنهار ، سوف ننظف التلة من الحجارة ونحضر تراكتورات وسمادا » .

فيجيبه العربي : « ما ينتجه الوادي كاف بالنسبة لنا ، وحيث وضع الله الحجارة لا يتعين على المرء أن يزحزحها (!) نريد أن نعيش كما عاش آباؤنا (!) لسنا نريد نقودكم ولا تراكتوراتكم ولا أسمدتكم » (٨٥) ان هذا الاعتراف العلني ، من فم عربي ، بحقيقة دور العرب التهديمي واصرارهم على التخلف مثير للدهشة حقا ! وسنتفرج على عربي اخر وقع في قبضة الجنود اليهود يلقي محاضرة عن فضائل احتلال اليهود لفلسطين مبدئيا في الوقت ذاته تخلفه الفاجع اذ يروي ، دون مناسبة ، كيف شهد شريطا سينمائيا وقام يجس الاشخاص على الشاشة (الانجلوساكسون ـ ص ٢٤٣) ولا شك أن هذا التباين في المستويات سيثير غضب صحفي أميركي اسمه ماتوز ، في رواية «نجمة في الريح» فينفجر في وجه عربي قال له ان الارض أرضه : « لم يكن ثمة أرض ، هنا كان مجرد صحراء ومستنقعات وفلاحون ، كان سكانكم يتناقصون طوال قرون لان نصف أطفالكم كانوا يموتون بسبب الوسخ في مهودهم ، ومنذ أتى اليهود تضاعف عددكم ، انهم لم يسرقوا انشا من أرضكم ولكنهم سرقوا منكم الملاريا واتراخوما وعفن حياتكم وفقركم» (٨٦) وتروق هذه النغمة للروائيين الصهاينة الى حد تكرارها بصورة تبعث على القرف . ان مراقبا اجنبيا في « نجمة في الريح » يتحدث عن « الخسة » العربية بعد أن « عاش اليهود الشباب مع العرب وساعدوهم في حقولهم ومحاصيلهم وأشرفوا على صحتهم » (٨٧) بصفتها حقيقة غير مشكوك ببداهتها ، وحتى حين يعرض رجل عربي وجهة نظره في الصدام مع اليهود فانه يعترف بالتخلف المدقع ويرفض أية مساعدة للتقدم (٨٨) وحتى تلك النبتة البدائية الشائعة التي تمتلىء بها الصحارى البعيدة عن اليد الانسانية ، النخلة ، لم تصل الى فلسطين الا حين قام اليهودي ياركوني بتهريب مئة شتلة منها بالسر من العراق ! (٨٩) .

ان ذلك كله ، تاريخيا وموضوعيا ، يبدو أبشع عملية افتراء ارتكبتها أية أجهزة دعاوية في العالم وسيبدو لنا كاتب يهودي اسمه جوشوا بارزيلاي في غير مكانه من هذا السيل الغريب حين يكتب اثر وصوله الى فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر : « ليس بوسعي ولا بطاقتي أن أصف الاشجار (في فلسطين) وكيف يمكنني أن أصف جمال النخيل والزيتون والتين ؟ ... اذا كانت الجنة تشابه هذا فيجب أن تكون جميلة جدا ! » (٩٠) ذلك شيء كان ، بالطبع ، قبل أن يهرب ياركوني شتلات النخيل الى فلسطين بربع قرن تقريبا ، وحين كان مجموع عدد اليهود في فلسطين أقل من ٨ الاف (٩١) وأهم من ذلك كله : قبل أن تجند الدعاية الصهيونية نفسها لقلب الارض الفلسطينية الى صحراء قاحلة ، وقبل أكثر من نصف قرن من قول الارلندي اوكنور، مدهوشا ، في رواية « نجمة في الريح » « سمعت انهم (اليهود) جعلوا الصحارى (في فلسطين) تتفتح كالورد ، ولا شك أن ذلك شيء جميل ! » (٩٢) وبالطبع لسنا ندري ان كانت هذه الجنة التي سمع بها الارلندي أوكنور عن بعد هي جنة « السماء الخامسة » التي قام الاطفال اليهود فيها بزرع أغصان الاشجار في الصباح كي يخدعوا الزوار ويحثوهم على التبرع في سبيل تحويل الصحراء الى جنة مسترشدين برأي مربيتهم التي ترتب هذا الاحتيال تحت شعار « الحياة صراع ، خدعة مقابل خدعة » (٩٣) كما اننا لا نعرف اذا كانت تلك الجنة هي « غابة زودمان » اليهودي الاميركي الذي كان قد تبرع لاسرائيل بمبلغ من المال لينشئوا غابة باسمه فقاموا بوضع يافطة تحمل اسمه على غابة قديمة لخداعه واستدرار المزيد من المال منه (٩٤).

ان ذلك كله سيضع اليهودي أمام « دور حضاري » ينبغي أن يقوم به رغم معارضة الشعب المعني ، انه ينقلب من غاز الى مصلح ، ومن شقي الى اب فاضل ، وسنسمعه يقول بمرارة انه لا يستطيع أن ينسى « اسواق العبيد في العربية السعودية ، والمرة الاولى التي دعيت فيها لمشاهدة قطع يدي رجل كعقاب للسرقة » (٩٥) ولانه لا يستطيع أن ينسى فان عدوانه يتخذ ، اذن ، طابع « الحركة الاصلاحية » ! .

غسان كنفاني

---

٨٤ ـ الاغراء الاخير ـ ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

٨٥ ـ لصوص في الليل ـ ص ٣٤ .

٨٦ ـ لصوص في الليل ـ ص ١٧٦ .

٨٧ ـ نجمة في الريح ـ ص ١٨٢ .

٨٨ ـ لصوص في الليل ـ ص ١٧٧ .

٨٩ ـ اكسودس ـ ص ٤٦ .

٩٠ ـ ولد في ١٨٥٥ ومات في ١٩١٨ ـ اقرأ عنه في « أدب اسرائيل المعاصر » بقلم وولترود ـ ص ١٠ .

٩١ ـ في احصاء رسمي : في ١٩١٤ كان يوجد في فلسطين ٥٩ مستعمرة يسكنها ١٢ الف يهودي .

٩٢ ـ نجمة في الريح ـ ص ٣٥ .

٩٣ ـ في رواية « السماء الخامسة » بقلم راشيل ايتان ـ تقع الحادثة كما جاءت في الرواية ابان الحرب العالمية الثانية ـ اقرأ نيو اوتلوك (المجلد ٥ العدد ٨ ـ تشرين الاول ١٩٦٢) .

٩٤ ـ رواية الينبوع ـ ص ٤٠ .

٩٥ ـ اكسودس ـ ص ٤٠ .